حادثة الصحيفة الدينماركية

إعداد

د.عبد الله العنقري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد: فإن من السهل أن نعرف كمّا هائلاً من الأحداث الجارية في هذا العالم، ولكن قلّ أن نحرص على تلمس مواطن العبر في هذه الأحداث.

وحادثة الصحيفة الدينماركية ـ ومن سايرها من الصحف الأوربية ـ هي من هذا القبيل، وسأحاول في عجالة أن أصل إلى شيء من العبر التي ينبغي استخلاصها من هذه الواقعة، وألخص ذلك في الآتي:

أولاً: كشفت هذه الحادثة عن الجهل الواسع الذي يلف الكثير من المجتمعات الغربية بشأن هذا النبي الكريم ﷺ وبشأن دينه العظيم، لأن تصوير نبي البشرية الخاتم بمثل تلك الصور دليل على الجهل به وبحقيقة دينه، قبل أن تكون صوراً عابثة ساخرة.

وهذه الحقيقة المرة قد لا يسهل على الغربيين تقبلها، ولكن هي الحقيقة التي تجلت في كتابات عدد غير قليل من مثقفيهم، فضلا عن سُذَّجهم.

وهذه المسألة الكبيرة تشعرنا نحن المسلمين بالتقصير البالغ في بيان ونشر هذا الدين الذي يصل إلى الكثيرين في العالم مشوَّها، رغم توفر الوسائل المعينة على تجلية حقيقته.

ثانياً: فضحت هذه الحادثة ـ وأمثالها كثير في المجتمعات الغربية ـ ما يتغنى به القوم من (الحرية) التي يرون أنها من مفاخرهم، وكم قادت هذه الحرية المزعومة إلى جملة من التناقضات والأزمات التي لا تحصى، رغم المحاولات التظرية لضبط هذا المفهوم، كالقاعدة

التي لم تجد لها تطبيقا: "تنتهي حريتك بتعديك على الآخرين"!!

ولك أن تتصور بُعد التنظير عن التطبيق، حين تعلم أن بإمكان المرء هناك أن يقوم لا بالسخرية ببني كريم فحسب، بل يمكنه أن يسخر بالله رب العالمين الذي أقرّ به المليارات من البشر، دون النظر إلى الجرح الغائر الذي أحدثه ذلك الساخر في تلك الأفواج الهائلة من الناس.

ومن هنا ندرك أن هذه السخرية بنبي البشرية ﷺ ما هو إلا نتاج لتلك الفوضى المبررة باسم الحرية!!

وموطن العبرة يبدو لنا بقوة، كيما نتفهم حقيقة الدعوات التي وردت إلينا من الغرب، ولا سيما في القرنين الماضيين، ووجدت رواجا باسم الانفتاح واحترام الرأي الآخر، أيّا كان ذلك الرأي، لنعرف ما يمكن أن توصلنا إليه هذه المفاهيم العوجاء من الفوضى التي أوصلت إليها أهلها المصدّرين لها.

ثالثاً: كرر المدافعون عن حرية الصحافة ـ سواءً من الساسة أو الكُتَّاب ـ مغالطة حاصلها أن دولهم ليس فيها رقابة على الصحف، وأن على غيرهم أن يتفهم هذا الوضع المميز الذي يتمتعون به.

وهذه المغالطة مكشوفة من عدة جهات، من أبرزها ـ فيما يتعلق بهذه القضية ـ ما يلي:

١- أن ما بثته الصحيفة الدينماركية هو تضليل للرأي العام، يصل إلى حد الكذب والتزوير المتعمد، فتصوير نبي الرحمة ﷺ بالشكل الذي تم عليه هو ـ بكل سهولة ـ كذب صراح، الهدف منه تشويه الحقيقة في مجتمعات تخفى عليها ـ منذ البداية ـ حقيقة هذا النبي

الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

وهذا التشويه لا يمكن أن يدخل في نطاق الحرية ـ حتى في المفهوم الغربي المتطرف ـ.

ومن الأمور المفروغ منها أن أَتْباع هذا النبي الكريم يتشرفون بكل ما جاء به ﷺ من عند ربه تعالى ـ وإن لم يَرُقْ ذلك لغيرهم ـ فلو نسبوا للنبي ﷺ ما هو واقع وحق، ثم عيرونا به لما رفعنا بتعييرهم رأساً.

فأما الكذب المحض والافتراء البيّن فهو الذي أثار حفيظة المسلمين، وذلك ـ تحديداً ـ ما وقعت فيه هذه الصحيفة المتجنية ومن لفَّ لفَّها.

٢- أن هذا النمط المفرط من التسامح ينقلب إلى الضد تماماً في قضايا تمثل لدى الغربيين خطوطا حمراء لا يمكن أن تتخطاها الصحافة ولا غيرها، وذلك حين يكون الكلام متعلقا بقضايا معينة مرتبطة باليهود، كالحديث عن المحرقة مثلاً، فمجرد التشكيك في هذه المسألة أو عرضها بأسلوب يخالف النمط الذي يراد لها أن تسير فيه يلقي بالمتورط فيه في أتون تهم عدة، على رأسها عداء السامية ونشر الكراهية، وربما أجبر الكاتب على الاستقالة وبطريقة مهينة، فلماذا تخلف الدفاع عن الحرية هنا؟

وقل مثل ذلك في قوانين سنتها حكومات غربية كثيرة تحت مسمى مكافحة الإرهاب، وتمت الموافقة عليها من المجالس المختصة هناك، رغم الأصوات المطالبة بإلغائها، لما فيها من مصادرة الحريات، فصارت هذه القوانين واقعا لا يمكن تجاهله، بل يجب التعامل معه بحذر، بالنظر إلى أن له حكم الإلزام.

رابعاً: أظهرت وسائل الدفاع التي برر بها الدينماركيون ومن سايرهم مدى التهافت

الشديد في حججهم، فبينما يزعمون أن الموضوع غير موجَّه إلى معتقدات المسلمين، يبرزون الحجة التي رأوا أنها تسكت كل متشكك في صدق ما يقولون، حيث يقولون: إن عيسى عليه السلام لم يسلم أيضاً، حيث ناله ما نال محمداً ﷺ، فلماذا الغضب إذاً؟

وجَهِل هؤلاء أو تجاهلوا أن الدفاع عن محمد ﷺ ليس دفاعاً عن شخصه الكريم وحده، بل الدفاع عنه دفاع عن جميع رسل الله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ بلا استثناء، فإن الجرأة على نبي واحد جرأة على الجميع، وقد قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الشعراء:١٠٥] مع أن قوم نوح لم يبعث لهم إلا رسول واحد، ولكن تكذيب ذلك الرسول تكذيب لجميع الرسل، وهكذا فالسخرية برسول واحد هي سخرية بالجميع، وقد قال النبي ﷺ ليهود (نحن أحق وأولى بموسى منكم).

وكذلك الشأن مع عيسى، فنحن أحق وأولى به، فالتعرض له بسوء هو مما يغيظ المسلمين، وإن كانت الإساءة صادرة من مجتمعات تدعي الانتساب إليه، ولذا كان بودي أن علة الدفاع عن هذا النبي الكريم ﷺ لم تضمن هذا الشعار (إلا رسول الله)، لأن ذلك قد يشعر بأن غرضنا هو الدفاع عن نبي معين، وهو ما لا نريده جميعاً، فلو كانت الحملة تحت شعار (إلا دين الله) لكان الأمر أوضح، رغم أن أي عبارة تستخدم ينبغي أن تكون معبّرة بدقة.

خامساً: بينت هذه القضية ومثيلاتها تخبط الغربيين في علاج القضايا التي يرون أن لها الأولوية، وعلى رأسها ما يسمونه اليوم بحرب الإرهاب، حيث يكرر الساسة في الغرب ـ إلى حد الإزعاج ـ أن هذه الحرب ليست موجهة ضد دين معين ـ خاصة دين الإسلام ـ وأن

على الجميع أن يكونوا صفّاً واحداً لتحقيق النصر في هذه المعركة المشتركة، ويريدون من المسلمين على وجه الخصوص أن يهبوا معهم في هذا السبيل عاجلاً، ثم يفاجئون الأمة الإسلامية بجملة ممارسات هي أكبر وقود يمكن أن يغذي العنف، وذلك في عبارات غير موزونة يبادر الواحد منهم ـ بعد أن يصدرها ـ إلى التشكي بأن مقولته فهمت بطريقة غير سليمة، وأن على الناس أن يتفهموا مقصده جيداً!!

وهذه القضية ـ قضية الدينمارك ـ تأتي في هذا السياق، فهي من أكبر ما يسبب الممارسات غير المضبوطة بالضابط الشرعي، بيد أن اللوم ـ إذا صدرت هذه الممارسات ـ لا ينبغي أن ينصبَّ على من وقعت منه وحده، بل ينبغي أن يشرك معه من تسبّب بتصرفه الأرعن في الوصول إلى تلك النتيجة.

أما الدفاع المستميت عن حرية الرأي على هذا النحو، مع نقد المسلمين على غضبهم فهو مجرد دعوة جوفاء إلى أن نراعي الغربيين في قناعاتهم ومبادئهم على حساب مبادئنا نحن، وبذلك أضحت حرية الرأي نوعاً من فرض الرأي، وتلك من العجائب التي لا تفسير لها.

سادساً: من المهم أن نعلم أن الاعتذار الذي ظل الكثيرون يطالبون به الصحيفة لا ينبغي أن يكون موضع تشاغلنا، فالجناية أكبر من أن تمرر باعتذار أجوف كهذا، بل التركيز ينبغي أن يكون على ضرورة المحاسبة التي نضمن من خلالها أن لا يتكرر هذا الجرم، لا في الدينمارك ولا غيرها، فأما مجرد اعتذار يصدر فإنه لا يغير من واقع الجرم شيئاً.

سابعاً: لا ينبغي أن ننسى نحن المسلمين أن نبينا ﷺ ـ وإن كان خير من وطئت قدمه الثرى، وهو سيد بني آدم، وإن رغمت أنوف الحاقدين ـ لا ينبغي أن ننسى أنه ﷺ قد نهى

عن المبالغة في تعظيمه، فإن الحماس في الذب عنه ﷺ يجب أن يكون مضبوطاً بالضابط الشرعي، حتى لا توصلنا الحماسة إلى الإفراط المذموم الذي نهى ﷺ أمّته عنه في مثل قوله ﷺ: **[قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل]**، وقوله: **[لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم]**.

ومن هنا كان من المهم أن نزن العبارات ونتفطن للأمر جيداً؛ لأن من الخطر أن تنقلب هذه الوقفة العظيمة في نصرة هذا النبي الكريم إلى ضروب من الغلو الذي حذر منه، وذم أهله، وسد صلوات الله وسلامه عليه كل طريق يؤدي إليه، ولو بلفظ أراد قائله به نصرته والثناء عليه.

وقد لحظ الغيورون تسرب شيء من هذه الأمور في أثناء هذه الحملة، مما استدعى ضرورة التنبيه إلى هذه المسألة الجليلة.

وأخيراً فإن من الواجب أن نعي أن كل تصرف يغيظ أولئك الجناة ليس مفتوحاً على مصراعيه، فإن أمة الإسلام تختلف عن تلك الأمم المتفلتة التي تسودها الفوضى المسمّاة بحرية الرأي والتعبير، وعليه فلا ينبغي أن تستخفنا هذه الأحداث إلى أمور لا تليق بنا ـ أتباع هذا النبي الكريم ـ.

وصدق الله ﴿ **فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾[سورة الروم:٦٠].